كمال جنبلاط

1977 - 1917

الكتابة عن كمال جنبلاط تقدم متعة ومعرفة، متعة للكاتب ومعرفة للقارئ. وقد أتيح لي أن أمارس متعة الكتابة ومتعة الغوص في عالم كمال جنبلاط الواسع والعميق مرات عديدة. أول ما كتبته عنه كان في يوم استشهاده في السادس عشر من شهر آذار من عام 1977. جاء ذلك في افتتاحية جريدة "النداء" اليومية الناطقة باسم الحزب الشيوعي اللبناني بعنوان: كبر لبنان معه.

قد يبدو اهتمامي واهتمام كتّاب كثيرين غيري بكمال جنبلاط مبالغاً فيه بالنسبة للمواطن العربي الذي لا يعرف عن الرجل سوى أنه زعيم سياسي لبناني كبير، وانه استشهد في مطلع الحرب الأهلية في ظروف أثارت الكثير من الأسئلة التي كان قسم كبير من الاجابات عنها معروفاً ومكتوماً. ومعروف أن عملية الإغتيال قد حصلت بعد أشهر قليلة من دخول القوات السورية الى لبنان محققة انتصاراً عسكرياً ساحقاً على تحالف الحركة الوطنية اللبنانية والثورة الفلسطينية، ومحدثة هزيمة سياسية للمشروع الذي كانت الحركة الوطنية اللبنانية بقيادة كمال جنبلاط تناضل من أجل تحقيقه، المشروع المتمثل بـ "البرنامج المرحلي للحركة الوطنية". وهو المشروع الذي كان يرمي إلى تصحيح النظام السياسي في لبنان في اتجاه الديموقراطية من خلال إلغاء هيمنة فريق من اللبنانيين على فريق آخر باسم الطائفية وبأسماء أخرى من الطبيعة ذاتها. كما كان يرمي ذلك المشروع إلى إرساء أسس جديدة لدولة ديمقراطية حديثة تعددية ذات مؤسسات تتوحد في ظلها المكونات الثقافية والدينية والسياسية للبنانيين كمصدر غنى لهم بديلاً مما كانت عليه تلك المكونات بتعددها مصدر خلاف واختلاف وانقسامات ونزاعات وحروب أهلية مدمرة . لكن هذه الدولة سرعان ما بدأت تنهار وتتفكك في ظل العهود اللاحقة وانقسامات اللبنانيين قادت إلى الحرب الأهلية.

لكن المواطن العربي كان ولا يزال يجهل الكثيرعن هذه الشخصية الفذة في تاريخ لبنان المعاصر. ذلك أن عالم كمال جنبلاط هو عالم واسع متعدد الجوانب حافل بالظاهرات التي

تشكل في تعددها وتناقضها المكون العام لشخصية الرجل. وبالطبع فمن الصعب ان يتصور المرء كيف يمكن لكل تلك التناقضات أن تتعايش في حياة وسلوك وتفكير شخص احتل ذلك الموقع في بلده وتجاوز حدوده الى البلدان العربية وإلى العالم.

فمن هو كمال جنبلاط، ومن أي تاريخ جاء إلى الزعامة، وكيف نشأ وتطور وصار زعيماً، وكيف وفي أية ظروف تكونت شخصيته الفذة المتعددة جوانبها ؟

ولد كمال جنبلاط في السادس من شهر كانون الاول من عام 1917 في بلدة المختارة مركز زعامة آل جنبلاط التاريخية. وهي بلدة تقع في أعالي منطقة الشوف من جبل لبنان . اغتيل والده فؤاد جنبلاط في السادس من شهر آب من عام 1921، حين كان مكلفاً بإدارة المنطقة. وتولت والدته نظيرة بعد وفاة والده الموقع السياسي الذي كان يشغله الوالد. واستمرت في ذلك الموقع والدور طيلة ربع قرن.

نشأ كمال الطفل في قصر المختارة مع شقيقته ليندا. وأشرفت على تربيته الأولى مربية خاصة. أنهى دراسته الإبتدائية في مدرسة عينطورة الشهيرة للآباء اليسوعيين. وحين أنهى دراسته الثانوية في عام 1937 انتقل الى جامعة السوربون في باريس حيث تابع دراسته في علم النفس وعلم الاجتماع. وعشية اندلاع الحرب العالمية الثانية عاد الى لبنان ليتابع دراسته الجامعية في جامعة القديس يوسف اليسوعية. وتخرج منها حاملاً شهادة الحقوق. مارس بعد تخرجه مهنة المحاماة بين عامي 1940 و1941. وبدأ يمارس العمل السياسي منذ عام 1943 بعد وفاة ابن عمه حكمت جنبلاط الذي كان يقوم بدور الزعيم الجنبلاطي الأول. انتخب الشاب كمال لأول مرة نائباً عن منطقة جبل لبنان في أول برلمان لبناني بعد الإستقلال. عيّن وزيراً للإقتصاد والإدارة والشؤون الإجتماعية في حكومة الإستقلال الثانية في عام 1946. ثم انتخب نائباً للمرة الثانية عن منطقة جبل لبنان في انتخابات عام 1947 التي تعرف عند

اللبنانيين بالإنتخابات المزوّرة. وقد استقال جنبلاط من النيابة احتجاجاً على ذلك التزوير. وأسس مع عبد الحميد كرامي الزعيم اللبناني المعروف (والد رشيد كرامي رئيس الوزراء الذي اغتيل في عام 1987) مع زعماء آخرين جبهة الإتحاد الوطني التي تولت معارضة حكم رئيس الجمهورية الشيخ بشارة الخوري. وظلت تلك المعارضة تقوى وتتسع بدور أساسي من كمال جنبلاط باسم الجبهة "الإشتراكية الوطنية" الى أن تمكنت من إسقاط الرئيس بشارة الخوري في عام 1952. انتقلت الرئاسة الى كميل شمعون، الذي كان حليفاً لكمال جنبلاط في المعارضة ثم أصبح بعد انتخابه رئيساً للجمهورية باسم الجبهة "الإشتراكية الوطنية" الخصم الرئيسي لجنبلاط ولحلفائه السابقين في المعارضة. وبدأت تتصاعد منذ ذلك التاريخ وتتعاظم زعامة جنبلاط السياسية على امتداد الخمسينات والستينات والسبعينات من القرن الماضي. وسرعان ما أصبح في نظر اللبنانيين واحداً من أكبر زعماء البلاد المميزين. وكان قد أسس الحزب التقدمي الإشتراكي في عام 1949 مع نخبة من الوجوه السياسية والثقافية، كان من أبرزها الشيخ عبد الله العلايلي رجل الدين المستنير والأديب والمؤرخ والفقيه المميز في اللغة العربية.

قد يكون من المفيد هنا ان نقرأه هو في تحديده لأصول عائلته ولانتماءاتها ولبعض تواريخ زعامتها . فهو يقول في بعض صفحات كتابه الأخير " وصيتي" الذي نشر بعد استشهاده بالنص: " .. . أنا درزي تتصل ارومتنا اللبنانية بالمختارة تلك القرية الشوفية الصغيرة التي يقع فيها قصر عائلتنا. غالباً ما أسمى أنا هنا " بسيد المختارة" بحيث أن البعض يضع في التسمية ظلال سخرية كما لو كان ذلك يتناقض مع واقع كوني زعيماً تقدمياً. وأنا أقبل هذا النعت واطرح النوايا. فلا بد للمرء من ان يكون سيداً بالمعنى الحقيقي للكلمة ، ذلك أن معنى كل حياة هو أن يكون المرء سيد نفسه. والمختارة المتشبثة بصخورها هي مقر بني على مراحل عبر مائتين وخمسين سنة من التاريخ ، فقد حل أجدادنا الذين هبطوا من شمال سوريا أول ما حلوا في مزرعة الشوف لاجئين في مغارة صغيرة . حدث ذلك بعيد قيام أحد أجدادنا وهو الأمير جانبولاد

(الاسم الكردي لعائلتنا) بإنشاء إمارة كبيرة أي مملكة صغيرة في شمال سوريا تشمل حمص وحماه وحلب ودمشق وجزءاً من تركيا الأناضولية . وقد أفلح في الحفاظ على استقلال إمارته بضع سنوات. وعقد عدة معاهدات مع الفاتيكان ودوقية توسكانا واسبانيا والدويلات المسيحية التي كانت قائمة آنذاك . كان جدي علي جانبولاد أول من منح مسيحيي سوريا في الشرق حصانة وأولاهم الحقوق ذاتها والحريات نفسها التي كانت لبقية الرعايا العثمانيين . و كان يستقبل السفراء في بلاطه كما سك النقود باسمه ، ولكنه عزل في النهاية بعدما هزمه جيش تركي قوامه 300000 جندي يقوده رئيس الحكومة نفسه، الصدر الاعظم . وقد بدأت عائلتنا بحكم لبنان في أيام الأمير فخر الدين . ثم راحت تزداد بعد ذلك قوة على قوة. لكن متى تراها اعتنقت المذهب الدرزي؟ إنّا لا نعرف لذلك اجلا ثابتاً. ذلك أن العقيدة الدرزية بالغة الوضوح بهذا الصدد . فمن المتعارف عليه أنه ليس لمن لا ينتمي الى هذه النحلة الباطنية أن ينتحلها ويصير درزياً. ثم أن باب الدعوة لم يفتح إلا أبان خلافة الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله في حدود السنة ألف ، ثم أقفل باب الدعوة بعد ذلك .. . واذا فلعل أجدادنا كانوا قد سبقوا إلى المذهب الدرزي يوم كانوا لا يزالون يعيشون في منطقة حلب. ومن شأن هذه الفرضية أن تفسر وجود نحو 60000 درزي في هذه المنطقة من الاناضول في جنوبي تركيا ، ووجود 20000 درزي آخر في الشمال السوري (جبل علاء)."

كتاب "وصيتي" هذا حافل بحشد من المعلومات والمواقف لجنبلاط لم تكن معروفة كلها في حياته. لذلك فهو كتاب يستحق القراءة.

عندما سمعت باسم كمال جنبلاط لأول مرة كان قد أصبح وزيراً في حكومة الإستقلال الثانية. كنت ما أزال طالباً في المرحلة المتوسطة من دراستي. وقد لفت نظري ونظر الكثيرين الجهد الذي بذله من موقعه كوزير للزراعة لتشجير المرتفعات الجبلية الجرداء، مستخدماً في ذلك الطائرة التي كان الإختصاصيون يرمون منها البذور على الجبال بأمل أن تتحول تلك

الأرض بفعل الخصوبة وكثرة المياه، إلى أحراش تغطي تلك المناطق الجرداء من جبال لبنان الجميلة. إلا أنني التقيت بجنبلاط أول مرة في مطلع عام 1958 عندما كنت أتابع دراستي في معهد الحقوق في بيروت. كان يومذاك يقدم محاضرات في إحدى المواد. لكن سرعان ما توقفت الدروس في المعهد بفعل الأحداث التي وقعت في ذلك العام. وهي الأحداث التي تحولت الى ثورة تعرف في تاريخ لبنان الحديث بثورة عام 1958. كانت تلك "الثورة" موجهة ضد حكم شمعون. وهي الثورة التي انتهت بمنع شمعون من تجديد ولايته والإتيان بقائد الجيش آنذاك الجنرال فؤاد شهاب إلى موقع الرئاسة الأولى. انتقل جنبلاط الأستاذ والزعيم السياسي إلى قصره في المختارة ليقود حركة مقاومة مسلحة، وانتقلت أنا الطالب الشيوعي إلى مركز للمقاومة في بيروت أنشأه الحزب الشيوعي اللبناني، كلفت فيه بالمسؤولية عن السلاح في المركز وعن حراسة المركز وعن العلاقة مع المقاتلين على الجبهة المحيطة بمركزنا وعن العناية بشؤون المقاتلين، إضافة إلى المساهمة مع آخرين في تنظيم ندوات ثقافية وسياسية كان يشارك فيها العشرات من شباب المنطقة التي كان يقع فيها المركز. وكانت تلك "الثورة" في حينها إنذاراً مبكراً بالحرب الأهلية التي ظلت تتراكم شروط انفجارها على امتداد سبعة عشر عاماً من عام 1958 حتى عام 1975. وكان الإستقطاب في "ثورة" 1958 هو ذاته الذي كان يتكوّن على امتداد تلك الأعوام ليشكل الإستقطاب الأساسي في الحرب الأهلية. وتتحمل جميع القوى السياسية من دون استثناء، كل من موقعه، المسؤولية عن ذلك التراكم في الشروط لانفجار الحرب الأهلية. وتعود للحركة الوطنية التي تأسست في أواسط ستينات القرن الماضي بقيادة كمال جنبلاط مسؤوليتها في انفجار الحرب في تحالفها مع قوى الثورة الفلسطينية ضد إلى جانب الأحزاب المسيحية التي انتظمت تحت اسم "الجبهة اللبنانية".المكونة من الأحزاب المسيحية .

علاقتي الأساسية مع جنبلاط بدأت تتوطد ابتداءاً من عام 1965 عندما شاركت مع آخرين من قيادة الحزب الشيوعي اللبناني في العمل معه على تأسيس جبهة الأحزاب والشخصيات الوطنية والتقدمية التي تشكلت في البداية من الحزب التقدمي الإشتراكي وحركة القوميين العرب والحزب الشيوعي اللبناني ومن ثلاث شخصيات هي: نائب مدينة صيدا معروف سعد ونائب جبل لبنان الجنرال جميل لحود والد رئيس الجمهورية الأسبق إميل لحود، ونهاد سعيد زوجة النائب السابق الدكتور أنطوان سعيد.

استمرت علاقتي مع جنبلاط تتوطد في إطار عمل الجبهة التي تطورت واتسعت وأصبحت تعرف باسم "الحركة الوطنية اللبنانية" التي ضمت جميع الأحزاب والتنظيمات السياسية اليسارية والقومية وعدداً كبيراً من الشخصيات المستقلة. وجرت معارك سياسية واجتماعية كبيرة باسم تلك الحركة على امتداد عقدي الستين والسبعين اللذين سبقا اندلاع الحرب الأهلية، وفي العامين اللذين أعقبا انفجارها وصولاً الى لحظة استشهاد رئيس الحركة كمال جنبلاط في عام 1977 في الظروف التي أشرت إليها قبل قليل. وجدير بالذكر أن النصف الأول من سبعينات القرن على وجه الخصوص قد تميّز بنضالات خاضتها الحركة الوطنية دفاعاً عن العمال والعمال الزراعيين والحرفيين والطلاب والمثقفين. وتشكلت باسم الحركة مؤسسات وحركات لكل ميدان من ميادين النضال تلك.

هذه المرحلة من حياة كمال جنبلاط هي التي جعلته في لبنان وعلى الصعيد العربي قائداً ثورياً في ظروف العصر وفي الشروط الخاصة بلبنان في تلك الحقبة. وأصبح من موقعه ذاك واحداً من قادة الثورات التي حفل بها القرن العشرون.

كان كمال جنبلاط رجلاً شجاعاً. كان لا يهاب أحداً ولا يخاف الموت. وكان برغم علمانيته قدرياً. كان يؤمن إيماناً قاطعاً بأن منيّته لا تأتي إلا عندما يكون مقدراً لها ذلك. وكان يقول بالتنجيم جاداً ومازحاً في الآن ذاته. وانطلاقاً من إيمانه بالقدر كان يرفض، حتى في

أحرج الظروف وأكثرها خطورة من الناحية الأمنية، أن يتخذ التدابير والإجراءات التي كان المسؤولون عن أمنه يحاولون اتخاذها. وهي واحدة من تناقضات شخصيته. ورغم أنه كان معادياً للطائفية بشكل عام ومعارضاً للصيغة الطائفية التي كان يقوم عليها النظام اللبناني، إلا أنه كان حريصاً على زعامته التاريخية للطائفة الدرزية باسم عائلته الجنبلاطية العريقة المتوارثة فيها الزعامة أباً عن جدّ. وكان جنبلاط ، استناداً الى زعامته الدرزية تلك التي لم تنازعه فيها الزعامات الدرزية الأخرى، يستهين بالكثير من الإعتبارات الطائفية الدرزية إلى الحد الذي أصبحت فيه المرجعيات الدينية تخضع له بدلاً من أن يخضع هو لها. لكنه كان بالمقابل يحترم التقاليد والشعائر الدينية الخاصة بالطائفة الدرزية ولا يسمح بتحديها. ووصل به الأمر في تناقض موقفه هذا إلى حد الإنتقام من الأديب والديبلوماسي الدرزي المعروف عبد الله النجار الذي تجرأ على الطائفة وأحكامها في كتاب أصدره في السبعينات. فأمر جنبلاط بمصادرة الكتاب وبإحراقه. وأدى موقف جنبلاط ذاك إلى تشجيع أحد الشبان المتعصبين للإعتداء على مؤلف الكتاب عقاباً له على فعلته. ولم يستنكر جنبلاط الحادث. لكنني ذهبت مع بعض أصدقائي الذين كنا على علاقة طيبة بالمؤلف لزيارته في منزله تضامناً معه ودفاعاً عن حرية الفكر، من دون أن يؤثر تضامننا هذا مع المؤلف في علاقتنا العميقة مع جنبلاط . ويذكرني هذا الحادث بحادث آخر يشبهه. وهو الحادث الذي يرتبط باعتقال الصحافي اللبناني غسان تويني بسبب إقدامه على النشر في جريدة النهار للوثيقة السرية لوزراء الخارجية العرب في اجتماعهم في بيروت في عام 1973. فقد أعلن كمال جنبلاط في أحد اجتماعات الهيئة التنفيذية للحركة الوطنية بأن عمل غسان تويني يرقى إلى مستوى الخيانة. وقد تطوعت يومذاك لكتابة مقال في جريدة "النداء" اليومية دفاعاً عن غسان تويني أعادت جريدة "النهار" نشره. وإذ استغرب غسان تويني جرأتي في التضامن معه وقيّم عالياً موقفي، فقد أعلنت لتويني أن جنبلاط يستطيع من موقعه القيادي في الحركة الوطنية أن يقول هو ما يراه ضرورياً من

الناحية السياسية وأن يتسامح ديموقراطياً مع موقف مناقض لموقفه يعلنه حليف له في الحركة التي تلتقي فيها وتتحالف قوى وطنية من مختلف الإتجاهات.

كان جنبلاط في معارضته للسلطات المختلفة عنيفاً وغير مهادن. ولم يمنعه من محاربة معارضيه موقعه كوزير. وكانت مواقفه تؤخذ في الإعتبار في كل العهود التي تصدى لمعارضتها، سواء باسمه الشخصي أم باسم حزبه التقدمي الإشتراكي أم باسم الحركة الوطنية التي كان يرئسها. وما أكثر اللحظات الحرجة التي رافقت سيرته كلها. وكانت لي ولبعض أصدقائي من الحزب الشيوعي ومن الأحزاب الأخرى بما فيها الحزب التقدمي الإشتراكي ذاته تجارب كثيرة لا تغادر ذاكرتي. أذكر بعضاً منها كنماذج من السلوك تدل على شخصيته . ففي عام 1969 جرت تظاهرات شعبية كبرى في لبنان تضامناً مع الثورة الفلسطينية لم يكن هو موافقاً عليها ولم يشارك فيها. وإذ قامت السلطات بقمعها بوحشية فقد قرر أن يقود بنفسه تظاهرة احتجاج على القمع غير مبال بالقرار الذي اتخذته السلطة بقمع تلك التظاهرة ذاتها. وكان إصراره على قيام التظاهرة وعلى مشاركته فيها سبباً في امتناع السلطة عن قمعها. وكان ذلك انتصاراً كبيراً له وللحركة الوطنية في آن . وذات يوم دعاني مدير وزارة الداخلية منير عانوتي مع صديقي وصديقه محسن دلول لملاقاته في الوزارة يوم كان كمال جنبلاط وزيراً للداخلية. كان ذلك في مطلع عام 1970 . كان جنبلاط يريد يومها من مدير وزارة الداخلية اعتقال ضابط في الجيش بسبب ارتكابه مخالفة في إحدى مناطق جبل لبنان. ورغم أن جنبلاط كان يعرف أن اعتقال ضابط في الجيش ليس من صلاحيات وزير الداخلية بل من صلاحيات وزير الدفاع وقائد الجيش، إلا أنه أصرّ على طلبه وأعلن للجميع أنه لن يغادر الوزارة قبل أن يأتوا إليه بالضابط مخفوراً. وكان ذلك في يوم عطلة. حاولنا محسن وأنا أن نقنع جنبلاط بالعدول عن موقفه. إلا أنه زجرنا بقوله إن ذلك ليس من صلاحيات الحركة الوطنية ولا من اهتماماتها. وتدخل في الأمر جميع أركان الدولة. وانتهى الأمر بتولي رئيس الحكومة رشيد

كرامي إبلاغ جنبلاط بأن قيادة الجيش قد اعتقلت الضابط وأودعته السجن وباشرت التحقيق معه.

جرت في العام ذاته حركات احتجاج وإضرابات وعصيان مدني قامت بها مجموعات يسارية متطرفة. ورغم موقعه في حركة طابعها وبرنامجها يساري، ورغم قيادته لحزب إشتراكي، فانه لم يتردد في اتخاذ موقف حازم من تلك الحركة. وقام بقمعها من موقعه كوزير للداخلية من دون أن يولي أي اهتمام للبيانات التي صدرت عن تلك المجموعات تهاجمه فيها وتكيل إليه اتهامات شتى. إلا أن من أهم إنجازاته كوزير للداخلية قراره بالترخيص لجميع الأحزاب اليسارية والقومية التي كانت السلطات السابقة قد منعتها من العمل، مديراً ظهره لكل المعارضات التي واجهت قراره من أحزاب اليمين، ومن بينهم وزراء كانوا شركاء له في الحكومة.

في عام 1976 عندما كانت قوات الحركة الوطنية والثورة الفلسطينية تقوم بهجومها المعاكس ضد معاقل الجبهة اللبنانية في جبل لبنان في العام الثاني لبداية الحرب الأهلية، دخلت القوات السورية إلى لبنان تحت شعار إيقاف القتال. وقد حاولنا نحن رفاق جنبلاط وأصدقاءه وحلفاءه من الحزب الشيوعي اللبناني ومن أطراف أخرى في الحركة الوطنية إقناعه بعدم التصدي لتلك القوات تجنباً للخسائر التي ستلحق بنا بسبب الخلل الكبير في موازين القوى لصالح السوريين والقوى اليمينية التي كانت قد دعت السوريين للتدخل. فلم يقتنع بكل الحجج التي قدمناها معلناً لنا بجزم أنه سيخوض المعركة لوحده مهما تكن النتائج. وبالطبع فقد انحزنا إليه وخضنا المعركة وحصدنا هزيمة كبيرة كانت آخر حلقة فيها استشهاد الزعيم والقائد الشجاع كمال جنبلاط.

واضح من تلك الصفات التي كان يتحلى بها جنبلاط الطابع المستقل والمميز لشخصيته الذي تجتمع فيه الجرأة والمغامرة إلى العقل والواقعية والأخلاق. وقد أتاحت لي علاقتي الوطيدة

معه خلال سنوات عديدة من معرفة تلك الجوانب المتعددة من شخصيته التي تجتمع فيها التناقضات كلها. وقد رافقته في ثلاث زيارات. كانت الزيارة الأولى إلى السودان تلبية لدعوة الحكومة السودانية التي كان يرئسها جعفر النميري (1970) للمشاركة في ملتقى الخرطوم الفكري. وكان يرافقه نائب رئيس الحزب عباس خلف. قدم كل منا في الملتقى بحثاً في الموضوع الأساسي المتعلق بالجانب الفكري في الحركة الثورية العربية. وإذ غادر جنبلاط مع نائبه عباس خلف الملتقى بعد تقديم بحثه تابعت أنا أعمال الملتقى خلال اسبوع. وشاركت في النقاشات متسلحاً في كثير مما قلته في مداخلاتي بما كان مشتركاً بيني وبين جنبلاط في الموقف من القضايا الأساسية، بما في ذلك في الموقف من دور الجيوش. إذ كنا في الحزب الشيوعي اللبناني وفي الحزب التقدمي الإشتراكي نعترض على الدور السياسي للجيش. وهو الدور الذي قاد إلى انقلابات عسكرية أرست أسس الإستبداد في بلداننا.

أما الزياراتان الأخريان اللتان شاركت جنبلاط فيهما فكانت وجهتاهما مصر. كانت الأولى للمشاركة في مأتم الرئيس جمال عبد الناصر في إطار وفد كبير من الحركة الوطنية اللبنانية بقيادة جنبلاط الذي كان يشارك في المأتم في إطار الوفد اللبناني الرسمي. وكانت الثانية للمشاركة في ندوة أقيمت بدعوة من الإتحاد الإشتراكي العربي في مناسبة الذكرى الأولى لغياب الرئيس عبد الناصر (1971) . كنا ثلاثة ، كمال جنبلاط ونائبه عباس خلف وأنا . وكانت لنا لقاءات مشتركة ومنفصلة مع عدد غير قليل من القيادات المصرية ومن المثقفين . كما زرنا زوجة الرئيس عبد الناصر. وقرأنا الفاتحة على قبره مع عدد من قادة مصر ومن المشاركين في الندوة كان خالد محي الدين في مقدمتهم. في اليوم التالي لعودتنا إلى لبنان شاركت مع جنبلاط ومع آخرين من قياديي الحركة الوطنية في مهرجان تكريمي لذكرى الرئيس عبد الناصر، حيث التقينا في كلمتينا على نقد النهج الذي كان أنور السادات قد بدأ يخطوه في الاتجاه المناقض لنهج الرئيس عبد الناصر.

ليس صعباً على من رافق كمال جنبلاط في مسيرة حياته أن يحدد العناصر المكونة لشخصيته السياسية التي جهد جنبلاط لكي لا تتعارض مع انتمائه الفكري للإشتراكية . وقد التقيت مع صديقي المستعرب الروسي ايغور تيموفييف على تحديد تلك العناصر في الملاحظات الخمس التالية :

الملاحظة الأولى هي أن كمال جنبلاط قد بدأ حياته مفكراً وأديباً. ولم يدخل إلى السياسة إلا مكرهاً. وحين دخلها من أبوابها الواسعة حمل معه إليها فكره وفلسفته وأدبه. فصارت السياسة في ممارسته لها سياسة من نوع مختلف، لصيقة بالثقافة ومرتكزة عليها كأساس من أساساتها الجوهرية. وعلى قاعدة هذا الإتجاه عنده منذ البدايات لا سيما في جامعة السوربون خلال فترة دراسته في فرنسا اختار الإشتراكية مبدأ اساسياً من مبادئه. إذ تعرف في فرنسا في ظل حكومة الجبهة الشعبية (تحالف الشيوعيين والإشتراكيين) إلى الفكر الماركسي وإلى الماركسيين من الإشتراكيين والشيوعيين . وظلت تستهويه هذه الفكرة في المراحل اللاحقة من حياته إلى أن أسس في أواخر الأربعينات الحزب التقدمي الإشتراكي مع لفيف من أصدقائه (1949). واختار اول أيار عن قصد وعن وعي يوماً لإعلان ولادة هذا الحزب . وبرغم أنه أعطى لاشتراكيته طابعها الخاص في الشكل وفي المضمون مختلفاً في ذلك عن الكثيرين من شيوعيي واشتراكيي بلاده وعصره، إلا أن هذا الإتجاه عنده نحو الإشتراكية، كصيغة لتحقيق الحرية والتقدم والعدالة الإجتماعية وتأكيداً للشخصية الإنسانية ، هو الذي جعله يتحالف منذ وقت مبكر وبصيغ مختلفة مع الحزب الشيوعي اللبناني ومع التشكيلات اليسارية الأخرى ، ويتحالف عالمياً مع الإتحاد السوفياتي وسائر البلدان الإشتراكية ومع أحزابها ومع الأحزاب الرديفة لها في العالم الرأسمالي . ونال في مطلع عام 1970 جائزة لينين العالمية للسلام التي كانت تمنح لكبار الشخصيات من السياسيين والمثقفين.

الملاحظة الثانية هي أن كمال جنبلاط الحالم بالتغيير في بلاده وفي العالم على أساس الإشتراكية ومشروعها الإنساني كان يقع في مطبات في بعض تحالفاته، سرعان ما كان يخرج منها محبطاً مع دروس جديدة كانت تزيده اقتناعاً بمشروعية أفكاره وبجدوى مشروعه الإشتراكي . وكان يزداد مع سير الأحداث ومع تطور وعيه لدروسها إحساساً بالحاجة إلى الدخول في علاقة من نوع مختلف عما ساد عند زملائه من السياسيين ومع الناس البسطاء. لذلك لم يعد يكتفي بكتابة المقالات والأبحاث. بل صار يكثر من اللقاءات مع الناس في الإجتماعات والمهرجانات والندوات والمحاضرات لكي يكون أكثر التصاقاً بالذين يعتبرونه في أفكاره معبراً صادقاً عن حاجاتهم وعن قضاياهم وعن طموحاتهم . وكان الحزب التقدمي الاشتراكي أداته الحقيقية في ممارسة تلك العلاقة وفي الإفادة منها إلى الحد الأقصى في تدقيق سياساته وترشيدها .

الملاحظة الثالثة هي ان كمال جنبلاط قد رأى منذ وقت مبكر بعد الخيبة التي واجهته في أعقاب انتخاب كميل شمعون رئيساً للجمهورية باسم الجبهة الإشتراكية الوطنية التي أطاحت حكم الشيخ بشارة الخوري، أن النظام الطائفي في لبنان يشكل عقبة حقيقية أمام التغيير. وازداد اقتناعه بهذه الفكرة في العهود التي توالت باستثناء عهد الرئيس فؤاد شهاب الذي أرسى لأول مرة في تاريخ لبنان الحديث أسس الدولة الديمقراطية، ودمرتها العهود التي أتت بعده. كانت الخيبات تتراكم عند جنبلاط. وكانت العقبات تزداد أمام أحلامه في إحداث التغيير الديموقراطي في البلاد. لذلك بدأ يرى مع حلفائه اليساريين أنه لا غنى عن إلغاء الطائفية كأيديولوجيا للنظام السياسي القائم لتحقيق تغيير ديموقراطي حقيقي في البلاد. وكانت الحرب الأهلية في تجربتها القاسية التي انتهت بفشل مشروعه ومشروع حلفائه المحطة الأخيرة من حياته . وقد أعلن قبيل استشهاده لأقرب اصدقائه ورفاقه في الحركة الوطنية جورج حاوي ومحسن ابراهيم أن"معركتنا" من أجل التغيير الديموقراطي هي معركة صعبة وطويلة، وأننا أخطأنا حين

خضناها من دون أن نكون مهيئين لها بما فيه الكفاية في الشكل وفي الأداة وفي اختيار اللحظة المناسبة. وكانت كلمات جنبلاط تلك تشير إلى طابع المغامرة التي اتخذتها سياسات الحركة الوطنية في صيغة تحالفها مع الثورة الفلسطينية وفي اختيار العنف سبيلاً إلى إحداث التغيير. لكن كلمات جنبلاط تلك لم تقدم الدرس الكافي والضروري لرفاقه في الحركة الوطنية. إذ استمروا في الحرب الأهلية جزءاً منها ومن شروطها وخسروا ما كان قد عبر عنه وبشر به البرنامج المرحلي للحركة الوطنية ودفعوا الثمن الباهظ لذلك.

الملاحظة الرابعة هي أن كمال جنبلاط قد أدرك منذ وقت مبكر أن لبنان لا يمكن إلا أن يكون جزءاً من العالم العربي بكل معنى الكلمة ملتزماً بكل قضاياه وفي المقدمة منها قضية فلسطين . لكنه أدرك في الوقت ذاته أن لبنان العربي هذا لا يمكن إلا أن يكون لبنانياً في الدرجة الأولى وأن يدخل إلى العالم العربي باسم لبنانيته وخصوصيته لا بالتخلي عنهما. لذلك كان في أفكاره وفي مشروعه السياسي وفي تحالفاته وفي مجمل ممارساته لبنانياً وعربياً حريصاً على تأكيد هذه القناعة، حتى وإن بدا في بعض لحظات حياته مبالغاً في هذا الإتجاه أو ذاك . فتلك كانت مجرد لحظات عابرة في حياته لا أكثر.

الملاحظة الخامسة هي أن كمال جنبلاط الإشتراكي كان يدرك أن لبنان وأن العالم العربي كله لا يستطيعان أن يكونا في معزل عما يجري في العالم. لذلك كان شديد الحرص على الجمع بين لبنانيته وعروبته وبين الطابع الإنساني لتفكيره. وقد كان منحه جائزة لينين تعبيراً عن هذا الفهم لرسالته الإنسانية هذه .

كان كمال جنبلاط قومياً عربياً عميق الإقتناع بأن مصير البلدان العربية هو مصير مشترك . لكنه كان يؤمن في الوقت ذاته أن الطريق إلى وحدة الأمة العربية يجب أن يكون ديموقراطياً وأن تؤخذ في الإعتبار خصوصيات كل بلد وخصوصيات شعبه عندما تطرح الفكرة للتحقيق، وأن يترك للشعوب أن تقرر شكل انتمائها إلى الوحدة وأن تقرر مجتمعة وفي شكل

واقعي صيغة تلك الوحدة. وكانت تجربة الوحدة المصرية السورية مليئة بالدروس بالنسبة إليه لا كأيديولوجيا رومانسية بل كإطار يحقق لجميع البلدان العربية تقدمها وللشعوب العربية حريتها وسعادتها. وإذ كان يكن الإحترام الكبير للرئيس جمال عبد الناصر وينظر إليه كقائد كبير للأمة العربية، فإنه كان يكرر دائماً بأنه، مع كل هذا التقدير لذلك القائد الكبير ، لا يرى نفسه ملزماً بأن يتبنى كل ما يقوله وكل ما يتخذه من قرارات . وكانت استقلاليته تلك واحدة من الميزات التي أعطت شخصيته طابعها المميز. ولم يتردد في إحدى لقاءاته مع الرئيس عبد الناصر بالتأكيد على تمسكه بالحرية كإطار للتقدم في تحقيق الوحدة العربية.

ولأن القضية الفلسطينية كانت في قلب اهتماماته وفي قلب همومه اليومية فقد كان شديد التأثر بكل ما يتصل بالأمور المتعلقة بها وشديد الحساسية أزاء أي اقتراح كان يقدم له في اتجاه دعمها. لذلك فقد لبى الدعوة التي أطلقتها لجنة تأسست من الأحزاب التي كانت تشارك في المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي اللبناني في كانون الثاني من عام 1972 لتأسيس الجبهة العربية المشاركة في الثورة الفلسطينية . وانتخب جنبلاط رئيساً لها بالإجماع. وانتخب لمساعدته كأمين سر تنفيذي للجبهة صديقي ورفيقي وصديق جنبلاط نديم عبد الصمد عضو قيادة الحزب الشيوعي اللبناني. وكان لتلك الجبهة دور مهم في الكثير من المبادرات التي اتخذت في دعم القضية الفلسطينية عربياً وعالمياً . وجدير بالذكر أن كمال جنبلاط كان قد ألقى خطاباً مهماً في المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي الذي حضرته عشرات الوفود من الأحزاب من لبنان والعالم العربي والعالمين الإشتراكي والرأسمالي. وكان ما أثار الإهتمام في خطابه تأكيده على الطابع الإنساني للإشتراكية منتقداً فيه الطابع الشمولي في أنظمة البلدان التي سلكت طريق الإشتراكية لتطورها. وكرر موقفه ذاك في الخطاب الذي ألقاه في احتفالات الذكرى الخمسين للحزب الشيوعي اللبناني في عام 1974. ومعروف أن تلك الإحتفالات قد شكلت بطابعها السياسي والثقافي والديمقراطي التعددي حدثاً سياسياً وثقافياً كبيراً. إذ شاركت

في ندوته السياسية والفكرية شخصيات من اتجاهات يسارية وليبرالية. وشاركت في النشاط الفني فرق لبنانية وعربية وأجنبية متعددة. وكان الشعار الذي اختاره الحزب الشيوعي بوعي كامل لأهميته لكل من مؤتمره الثالث ولاحتفالات الذكرى الخمسين لتأسيسه شعار "التغيير الديمقراطي". ودعا جميع القوى اللبنانية والعربية لكي تكون شريكة له في العمل لتحقيق ذلك التغيير.

حين اختار جنبلاط أن يكون اشتراكياً عندما كان طالباً في فرنسا فإنه اختار طريقه هو إلى الإشتراكية وفهمه هو لها ولمبادئها. ويجد الباحث صعوبة في التقاط المبادىء الأساسية لتلك الإشتراكية التي اختارها جنبلاط لنفسه ولحزبه. وقد اكتشفت بنفسي تلك الصعوبة عندما أعدت قراءة عدد من نصوصه الكثيرة الموزعة في عدد كبير من كتبه وأبحاثه وخطبه ومقالاته ومحاوراته مع ذاته ومع الآخرين في شؤون الحياة والمجتمع والوطن وفي شؤون الأمة وفي شؤون الكون كله . وتكمن الصعوبة في هذا البحث في أن كمال جنبلاط كمفكر كبير كان ذا ثقافة واسعة وغنية ومتعددة ومتناقضة بتناقض مصادر هذه الثقافة. وكان كثير الإجتهاد والإبداع وكثير البحث والمتابعة . وكان في الآن ذاته متردداً في حسم قناعاته الفكرية حول قضايا الكون والوجود وحول الإنسان في تحولاته الكبرى. لكن ميزته الأساسية أنه كان يسعى دائماً للدخول في جوهر الأشياء على أساس الربط الجدلي بين ظاهر الشيء وكنهه وبين حياة الإنسان المادية وحياته الروحية، وبين ما هو معروف ومتداول وبين ما هو خارج المعرفة العامة المتداولة في شؤون البشر . وبهذا المعنى يمكن تصنيفه فيلسوفاً . كان بمقدوره أن يبقى فيلسوفاً وأن يكون متميزاً في أبحاثه الفلسفية . لكنه اختار بوعي ألا يكتفي بابتداع الأفكار خارج الممارسة وخارج الفعل وخارج الإختيار الحي لمدى صحة أفكاره ، ولمدى قدرتها على الحياة والفعل والإنفعال. اختار ، بوعي ، أن يدمج فكره بالممارسة وأن ينقل أفكاره إلى الحياة . لقد كان بامتياز رجل فكر وفلسفة ورجل سياسة في آن. وكان ثائراً وصاحب

مدرسة خاصة في الثورة هي مدرسته هو بالذات . وكان قائداً سياسياً وحزبياً . وكان قائداً جماهيرياً. وكان أديباً في الوقت ذاته. وكان إنساناً حقيقياً في علاقته بالناس وبالطبيعة وبكل أشياء الحياة .

كل هذه الصفات وكل هذه الهموم في فكر جنبلاط وفي حياته وفي علاقاته هي التي خلقت له صعوباته الخاصة في تحديد أولوياته في الفكر وفي السياسة وفي تحديد المفاهيم وفي تحديد المهمات. وهي تخلق لنا الصعوبات في دراسته . إنه بكلمة مجموعة عوالم في فرد متميز فذ .

لقد كانت الإشتراكية كما فهمها وكما تشيرإلى ذلك كتاباته بشأنها الطريق إلى حل معضلات البشر الكبرى ومشكلات حياتهم اليومية. لكنه لم يشأ في خياره الإشتراكي أن يكون جزءاً بسيطاً من الحركة الإشتراكية في العالم بقطبيها: الإشتراكية المتمثلة بالحركة الشيوعية العالمية بقيادة الإتحاد السوفياتي والإشتراكية المتمثلة بالدولية الإشتراكية وبمجموعة الأحزاب الإشتراكية الديموقراطية التي تشكل استمراراً معاصراً للأممية الثانية التي كان قد أسسها ماركس وإنجلز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. بل هو أراد منذ البدء أن يؤسس لاشتراكية من نوع خاص هي الإشتراكية التقدمية التي أبدع فيها هو وأضاف لها بحذر بعض ما انتقاه من المدارس الإشتراكية الأخرى. وتبين مجمل كتبه الجهد الذي بذله في تكوين تصوره للإشتراكية . لكن فكرته عن الإشتراكية لم تكتمل عنده. بل هو ظل كأي مفكر وفيلسوف ومصلح اجتماعي كبير يبحث ويتطور ويراقب أحداث بلاده وأحداث الكون ويراقب ويواكب التجارب كلها ليغني الفكرة الإشتراكية كما فهمها وليغني أشكال تجليها في بلده لبنان بالذات وفي وطنه العربي الكبير . وهو يقول في هذه المسألة بالنص بأن "فكرة الحزب التقدمي الإشتراكي "إنما هي، في نموها وتطورها وتبدلاتها وتكونها المتنوع والكادح ، محاولة صهر

الفكر والتجربة الإنسانيين . إن الحزب التقدمي الاشتراكي هو حزب الانصهار، اذا ما عدنا الى المصطلحات الهيغلية..".

قلت إنه لم يشأ أن يكون جزءاً بسيطاً من الحركة الإشتراكية القائمة بتياراتها ومدارسها ومكوناتها المختلفة . لكنه لم يضع بينه وبين هذه الإشتراكيات سوراً صينياً . ولم يتعامل معها على المستوى نفسه من التقييم وعلى المستوى نفسه من العلاقة . بل إنه حاول دائماً أن يكون في موقع المستقل المرتبط بواقع بلاده وبظروفها وبحاجاتها وبهمومها وبأولويات مهماتها المتمثلة بالإستقلال وبالتحرر وبالتصدي للعدوان وبالإهتمام بقضية التنمية والتقدم وبالتكامل مع البلدن العربية . لذلك فإنه ، إذ حافظ على علاقات تنظيمية وصلت إلى حد الإنتساب الى الدولية الإشتراكية ، فإنه حرص بالمقابل على علاقاته المميزة مع الحركة الشيوعية في لبنان أولا ثم على الصعيد العالمي مع الإتحاد السوفياتي كحزب وكدولة ومع أحزاب شيوعية في بلدان اخرى. وكانت تلك العلاقات مع الحركة الشيوعية، التي لم تتخذ طابعاً تنظيمياً والتي تمايز فيها عن تلك الأحزاب، أعمق من علاقاته مع الدولية الإشتراكية التي كان ينتمي إليها تنظيمياً وكان ينتقدها وينتقد سياساتها العامة والخاصة بشدة وعنف. وكان في موقفه ذاك ينطلق من تمييز واضح بين مواقع كل تلك القوى على الصعيد العالمي من جهة ، وبين المصلحة الوطنية والقومية في تحالفاته الأممية من جهة ثانية .

هكذا كان كمال جنبلاط دائماً في صياغة أفكاره وفي ممارسته لهذه الأفكار وفي علاقته مع الآخرين في بلده وفي بلاد العالم الاخرى. وهكذا كان في تحديده للإشتراكية وفي سعيه الدائم لإضفاء طابع خاص عليها حريصاً على قراءة دقيقة للواقع والتعامل معه وحريصاً على التفاعل مع الأفكار. وكان هاجسه الدائم هو أن يظل في فكره وفي ممارسته ملتزماً بقضايا الناس وبمكونات حياتهم محترماً وعيهم عاملاً على الإرتقاء بهذا الوعي بواقعية من دون اعتباط أو قسر.

إلا أن بعض القراءات في نصوص كمال جنبلاط تساعد في إعطاء صورة عن هذا النموذج الفذ للمفكر الإشتراكي والثائر والمصلح الإجتماعي والقائد السياسي ورجل الدولة. وتلك بعض هذه النماذج من آرائه :

يقول في الجواب عن سؤال لماذا أنا إشتراكي بكلمات مبسطة فيما يبدو انه جزء من محاضرات مبسطة للحزبيين :

" أن إشتراكي لأنني أحب العدل والاخاء والحرية ، ولأنني أشعر إن أنا عدلت مع غيري فكأنني عدلت مع نفسي، وإن أنا ظلمت نفسي ظلمت غيري .. . ولأنني أنزع إلى التوافق مع الجميع والانسجام الشامل كاللحن ... انا اشتراكي لأنني اعتقد ان الاشتراكية روحية يجب ان تتحقق في النفوس فوق وقبل تحققها في الانظمة والمؤسسات...".

ثم يقول في مكان آخر ، في تحديد عقيدة الحزب التقدمي الإشتراكي ، بأن " الضمائر اصبحت الآن شبه مؤهلة لاختيار ديموقراطية اشتراكية ، اشتراكية انسانية ، اكثر تفهما ، اشتراكية عقلية معتدلة ، اشتراكية بعيدة عن الجمود العقائدي واقل صورية ، وبعيدة عن الستالينية المكروهة . باختصار اشتراكية اختبارية تعمل على انصهار الانسان في كليته ، وتعيد صلة جذوره بالتاريخ والروح".

لكنه حين يحدد مفهومه هذا للإشتراكية التقدمية ، فإنه يعود إلى المفاهيم العامة المتداولة للإشتراكية التي تعتبر الديموقراطية الإجتماعية والتوزيع الصحيح والعادل للثروة شكلاً للتعبير عن العدالة الإجتماعية. ويربط تحديده لفهم الديموقراطية الإجتماعية بالديموقراطية الإقتصادية من خلال التأكيد على آلية التطور الإقتصادي ودور العمل الذي يشكل الإنسان جوهره . وهو لذلك يعتبر أن الإنسان القادر على العمل ولا يعمل لا يستحق أن يأكل . وفي هذا المجال بالذات يدخل في نقاش مع التجربة السوفياتية للإشتراكية ، فيناقش موضوع الملكية العامة والتأميمات والملكية الخاصة والعلاقة بين الإنتاج والإستغلال. وهو إذ يتحدث عن مبدأ إعادة

توزيع الثروة لا يختصر الأمر بقول له هنا أو قول له هناك . بل هو يؤكد أن الأمر يحتاج إلى مزيد من البحث والتدقيق. لذلك يؤكد على أن المعرفة تظل هي الأساس . ويولي من أجل ذلك قضية التعليم والثقافة أهمية كبيرة. ويعتبر أن من أهم عناصر التطبيق في مستوى معين من التطور إنما يكمن بالدرجة الاولى في حق العمل وحق التعلم والحق في ممارسة الحرية بكل أنواعها وفي كل ميادين النشاط الإنساني.

غير أن عوالم كمال جنبلاط لا تنحصر في الفكر وفي السياسة وفي الإصلاح الإجتماعي. فهو قد اختار لنفسه طريقة في الحياة اختلف فيها مع أهل عشيرته، في العائلة والطائفة ومع رفاق دربه في السياسة داخل حزبه الإشتراكي ومع حلفائه السياسيين. ووضع لنفسه طقوساً أخذ قسماً منها من علاقته بالهند وبفلاسفتها وبقائدها التاريخي المهاتما غاندي. وأخذ قسماً آخر منها من فلاسفة غربيين ممن استهوته تأملاتهم الفلسفية. وصارت اليوغا واحدة من ممارساته التي اختار لها مكاناً قصياً في أعالي منطقة الشوف غير بعيد من قصر المختارة ، حيث كان يختلي بنفسه وحيداً مع أفكاره وتأملاته الفلسفية. وتحفل بعض دواوينه الشعرية بلغة قريبة من لغة الصوفيين، مختلفة عنها في الزمان وفي الرؤية وفي الطقوس والأفكار والمشاعر والتخيلات، وفي المفردات اللغوية . ولعلي لست الوحيد الذي لم يستطع الدخول في العالم الشعري والنفساني الذي توزعت كتابات جنبلاط حوله. ومع ذلك فمن غير الممكن والجائز الحديث عن شخصية جنبلاط من دون الإشارة إلى هذا العالم الخاص من عوالمه.

ويتصل بهذا الجانب من شخصية جنبلاط ومن اهتماماته ومن طقوسه، التي تتخذ لها صفة وشكل عالم مستقل من عوالمه، جوانب أخرى قد تبدو غريبة إذا ما ارتبطت باسم رجل السياسة والفكر والفلسفة والإصلاح الإجتماعي . ففي كتابه " أدب الحياة " يتكلم عن أنواع مختلفة من الآداب يقدمها بالكلمات الآتية تحت عنوان "الأدب نظام الحياة". فالأدب في نظره "احترام النفس و احترام الآخرين . ومن لا يحترم نفسه ويعتبر فيها فكيف يصح له ان يتوجه

الى الآخرين بالاعتبار والاحترام؟". ويعدد جنبلاط في هذا الكتاب نماذج تلك الآداب التي يجب أن يتحلى بها الإنسان . وهي : أدب الدخول و أدب الجلوس وأدب المجالسة بالكلام وأدب السلام وأدب الأكل وأدب الشرب وأدب معاملة الجسم وأدب عيادة المريض وأدب المراجعة وأدب الجلوس في الأماكن العامة وأدب النظر وأدب السماع الخ ... وهو ، إذ يعتبر صحة العقل والروح من صحة الجسم ، فإنه يقدم نفسه طبيباً طبيعياً يواجه الأمراض بالأعشاب وقاية وعلاجاً . ويشكل كتابه الذي يحمل عنوان " العلاج بأعشاب القمح " واحداً من أطرف الكتب الطبية الطبيعية . فهو يرى أن الإنسان هو طبيب نفسه . بل هو يدعوه لأن يكون طبيب نفسه في هذا الكتاب بالذات . وهو يعتبر أن عشب القمح هو النبتة الطبيعية الأكثر ملاءمة لصحة الجسم . لذلك يعطي للفصل الثاني من كتابه هذا العنوان التالي : عشب القمح عطاء الله ! ويعتبر في فصل آخر من الكتاب أن الصيام على عشب القمح هو الطريق إلى الصحة. ويقدم نصائح في كيفية استخدام عشب القمح كعلاج ، ويفصل في ذلك. والكتاب حافل بكل ما يتصل بالنباتات كغذاء وكدواء.

ولعل من أطرف ما أذكره عنه مائدته الصباحية التي تتكون من أنواع لا تحصى عدداً من النباتات ومن الحليب ومشتقاته ومن الثمار المجففة ومن العسل والزيتون والزعتر الأخضر والمطحون ومن أطعمة أخرى من الطبيعة ذاتها يتناولها جميعها كفطور صباحي. وما أكثر ما كنا، نحن أصدقاءه ورفاقه، نشاركه في كثير من حفلات طعامه تلك ومن طقوسه فيها.

إلا أن هذا الجانب من فلسفة جنبلاط ومن تأملاته الصوفية تتقاطع مع جانب آخر من فلسفته، الجانب الذي يلتقي فيه ويختلف ويتمايز مع ماركس وإنجلز ومع تحليلاتهما وشروحاتهما المتعلقة بالمعرفة بجانبيها العقلي والحسي. ولعل كتاب عفيف فراج الذي يحمل عنوان " كمال جنبلاط . جدلية المثالي والواقعي" هو من أفضل الكتب حسب معرفتي في معالجته لهذا الجانب من فكر جنبلاط الفلسفي في العلاقة مع الماركسية. ويرجع المؤلف في

قراءاته لفكر جنبلاط الفلسفي في شكل خاص إلى محاضرة جنبلاط التي تحمل عنوان "في ما يتعدى الماركسية"، التي يناقش فيها فكر مارس وإنجلز ويبين أماكن الإلتقاء وأماكن الإفتراق معهما. وإذا كان جنبلاط يتفق مع مؤسسي الماركسية بأن العمل قد شكل تحدياً في تاريخ الإنسانية ، من حيث أنه مكن الإنسان من أن يتطور فكرياً وروحياً وإنسانياً وجسدياً فإنه ، أي جنبلاط، يتعارض معهما في الموضوع الأساسي في الفلسفة المتعلق بتحديد الأسبقية في الوجود، أهي للمادة أم للفكر. فهو يعود بفكره إلى الفلسفة الهندوسية والأفلاطونية كما يقول عفيف فراج ليقرر بأن العالم الظاهر لا وجود له في الحقيقة . ويستشهد فراج بنص لجنبلاط مأخوذ من مقال له نشر في جريدة " الأنباء " التي كان يصدرها. يقول النص: "... ان كل هذه الأشياء هي من خلق فكرنا ومن علائق الحواس، ومن تفاعل هذه العناصر ... وهكذا فان صفات هذا العالم ليست موجودة في ذاتها . وبهذا المعنى وبتعبير دقيق اكون انا خالق العالم . فأنا الذي يقوم طيلة الوقت بهذا الخلق العقلي".

ولا أظن أن القارىء معني بهذا الجانب المعقد من فكر جنبلاط . لكن الإشارة إلى هذا الجانب بهذه الكلمات القليلة إنما ترمي إلى استكمال الصورة عن عوالم هذه الشخصية الإنسانية الفذة.

وبعد، فإنني أعترف بأن ما كتبته واستمتعت بكتابته عن كمال جنبلاط ليس إلا النذر اليسير مما تحفل به عوالم هذه الشخصية الفذة في عالمنا العربي المعاصر. ولا أبالغ إذا قلت بأن الكتاب الذي وضعه صديقي المستعرب الروسي ايغور تموفييف لم يصل هو ذاته برغم حجمه وشموليته إلى كل ما يتصل بعمق شخصية كمال جنبلاط وعوالمه المتعددة. لكن ما أوردته في هذه الصفحات هو بعض من الوفاء لزعيم سياسي كبير من بلادنا ولمفكر ومصلح إجتماعي ولقائد ثوري قدم حياته من أجل قضية كان مؤمناً بصحتها وصوابها ، قضية الحرية والتقدم والعدالة الإجتماعية لبلداننا ولشعوبها التي رفض باسمها بشجاعة نادرة إدخال بلده لبنان

في السجن العربي الكبير ، سجن الأنظمة الإستبدادية التي كانت تلف العالم العربي من أقصاه الى أقصاه.